

حلية المراقبة روح عبادة الصّيام

د. محمود توفيق محمد سعد(*)

لا تكادُ تجدُ أمّةً تشكُو اضْطرابًا أمنيًّا أوْ عَنَتًا اقتصاديًّا، وغلاءً معيشيًّا مِن قِلَّةِ مواردِها الاقتصاديّة فإن اللهَ تعالى قدَّرَ لِكلِّ دابّةٍ فِي الأرضِ رِزقَها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ (هود:٦)

ما تشْكوه آتيها من أمْرَيْن رَئيسَيْن مُتآخذيْن مُترافديْن :

(الأوّلُ): من سوءِ إدارةِ القائِمين عَلَى أمْرِها، مِن أنَّهم ليسُوا أهلًا؛ لأن يَكونُوا ولاةً علَى أمْرِها، فوسّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ خِداعًا أو تَرْهيبًا أوْ بِهِما مَعًا.

رَوى البُخاريّ في كتابِ «العلم» من صَحيحِه بسندِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: بَيْنَمَا النَّبي ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِي، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟»، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

(والآخر): مِن اسْتشْراءِ الفَسادِ وتَناصُر المُفسِدينَ فِيها وتغافُل القائمين على أمْر البلادِ عنهم، أو عجزًا عَن مكافحتِهم.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ (هود:١١٦)

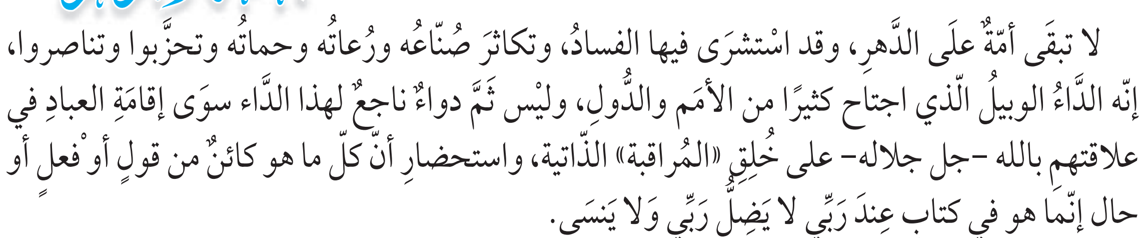
﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧)

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الروم:٤١)

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ (الفجر:١٠- ١٤).

(*) عضو هيئة كبار العلماء.





لا تبقَى أمّةٌ علَى الدَّهرِ، وقد اسْتشرَى فيها الفسادُ، وتكاثرَ صُنّاعُه ورُعاتُه وحماتُه وتحزَّبوا وتناصروا، إنّه الدَّاءُ الوبيلُ الّذي اجتاح كثيرًا من الأمَمِ والدُّولِ، وليْس ثَمَّ دواءٌ ناجعٌ لهذا الدَّاء سوَى إقامَةِ العبادِ في علاقتهم بالله -جل جلاله- على خُلقِ «المُراقبة» الذّاتية، واستحضارِ أنّ كلّ ما هو كائنٌ من قولٍ أو فعلٍ أو حال إنّما هو في كتابٍ عِندَ رَبِّي لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى.

وجوهرُ المراقبة: «دَوَامُ عِلْمِ الْعَبْدِ، وَتَيَقُّنِهِ بِاطِّلَاعِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ»[١٥].

وبيان الوحيِ ذو اعتناءٍ بتمكينِ حِليةَ «المراقبة» لله تعالى في أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا ظاهرة وباطنة.

يقُول سبْحانه وتعالى : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

ويقولُ الله تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (آل عمران: ٥).

ويقولُ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

ويقولُ تعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: ٦١).

ويقُول تعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: ٨ - ١١).

ويقُول تعَالَى : ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ (طه: ٧).

ويقُول تعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ (الأحزاب :٥٢).

ويقُول تعَالَى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الشعراء:٢١٨، ٢١٩).

ويقُول تعَالَى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩).

ويقُول: تعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ (الحديد:٤).

ويقُول تعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ (الفجر: ١٤).

ويقُول تعَالَى :﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ (الأعلى: ٧).

ومن السُّنّة البيانيّة للقرآن أنه يُعنى بتصريف القول عن ما هو بالغُ الأثرِ في حياةِ الأُممِ؛ ليكونَ ذلك المعنى حاضرًا في الأفئدة.

---

(١٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت: ٧٥١هـ) تحقيق: محمد المعتصم بالله البغداديّ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت (ط:٣) عام ١٤١٦ هـ، ٢/ ٦٥.

وممَّا جاء عن المراقبة في السّنةِ ما رواه التُّرمذي -رضي الله عنه- في كتاب: «البر والصلة» والإمامُ أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- في مسنده بسنديْهما عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[١٦].

وفي حديث جبريل المبين عن حقيقة «الإحسان» بيان درجةِ المُراقبة الّتي تسبق درجة المشاهدة الفؤادية وتُفضِي إليْها .

روى الشَّيخان بسنديهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِي ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : ... مَا الإِحْسَانُ قَالَ: « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[١٧]، (الحديث)

قوله ﷺ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » مقام المشاهدة الفؤادية وقوله: « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » مقام المراقبة.

يقُول القسْطلاني: «(فإن لم تكن تراه) نزول عن مقام المكاشفة إلى مقام المراقبة أي إن لم تعبدْه وأنت مِن أهل الرّؤيةِ المعنويّة، فاعبده وأنت بحيث إنّه يراك»[١٨].

وعبادة «الصّيام» من أكثر العباداتِ تأسيسًا لهذا الخلق في القائمين بها، فأمَّة صائمةٌ هي أمَّة مستشعرةٌ رقابة الله تعالى عليْها، فلا يصدُرُ منها إلا ما يرضِيه عنها، فإذا ما رأيت قومًا صائمين قائمين على ما كانوا عليه من فساد فاعلمن علم يقين أن صيامهم هذا مَواتٌ لا أثر للصّيام فيهم. أبطلوا ثمرة هذه العبادة، وما العبادات إلا بتحقق ثمارها في القائمين بها.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)

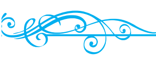
فالصَّلاةُ والصِّيام من أكثر وأقوى العباداتِ تأثيرًا وتحقيقًا لحلية «المراقبة» في القائم بهما.

قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: الْمُرَاقَبَةُ عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنْ يَصِيرَ الْغَالِبُ عَلَى الْعَبْدِ ذِكْرُهُ لِرَبِّهِ بِقَلْبِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ، وَيَخَافُ سَطَوَاتِ عُقُوبَتِهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ، وَيَهَابُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَصَاحِبُ الْمُرَاقَبَةِ يَدَعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ وَهَيْبَةً لَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَتْرُكُ مِنْ بِدَعِ الْمَعَاصِي لِخَوْفِ عُقُوبَتِهِ،

(١٦) أخرجه أحمد، من حديث معاذ بن جبل، رقم (٢٢٠٥٩).

(١٧) أخرجه البخاري رقم : (٥٠)، ومسلم رقم : (٩).

(١٨) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، تأليف: أبي العباس شهاب الدين القسطلاني: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني(ت: ٩٢٣هـ) الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، (ط:٧) ١٣٢٣ هـ، ١/ ١٤٠.





وَإِنَّ مَنْ رَاعَى قَلْبَهُ عَدَّ مَعَ اللَّهِ -عز وجل- أَنْفَاسَهُ فَلَا يُضَيِّعُ مَعَ اللَّهِ نَفَسًا، وَلَا يَخْلُو عَنْ طَاعَتِهِ لَحْظَةً، كَيْفَ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ -عز وجل- يُحَاسِبُهُ عَلَى كُلِّ مَا قَلَّ وَجَلَّ (١٩).

وحقٌّ أن يكونُ خلقُ «المراقبة» ممَّا يُعنى بتثقيف شباب الأمة به تثقيفًا علميًّا وعمليًّا، ذلِك أنَّ التّحلّي به حجازٌ من اقترافِ كلّ سَيئة، وحجازٌ مَن الغفلةِ عن التوبة عن السيئةِ إن وقعتْ.

وأحقُّ النَّاس بتلك الحلية طلابُ العلمِ، ولا سيّما العلمُ ببيانِ الوَحي وبما استولد منهما مِن العلومِ، فهُم أطباء القلوبِ وهم المتأهلون؛ لأن يكونوا العلماءَ الرَّبَّانِيّين ورثة النّبيّ ﷺ الّذين يُخرِجون النّاسَ مِن الظُّلُماتِ إلى النّور.

وليس حسنًا أن يعالج الطبيبُ مريضًا من داءٍ هو قائمٌ فيه، فنفسُه أوْلَى بالتّطبيبِ، فكان حقًّا على مَن هم قائمون بصِناعةِ الرِّجال مِن العلماء أن تكون حلية «المراقبة» من أكثر أخلاقِهم حضورًا في كلِّ قولٍ أوْ فعلٍ أو حال، فإذا رأى طالبُ العلم شيخَه فِي مقامِ «المراقبة» قائمًا كان ذلك فيه أنجعَ، ولقوله فيه أسمعَ، ولمكارمِه أجمعَ، والله الهادي إلى سواء السبيلِ.

(١٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف الملا علي القاري: علي بن سلطان الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) الناشر: دار الفكر، بيروت، (ط:١) عام ١٤٢٢هـ، ٤/ ١٥٧٦.